مجلة الرائد

العدد : ٢٤١ الموافق في ذو الحجة ١٤٢٤ هجري ٢/٢٠٠٣ ميلادي

عنوان المقال :{ عشت في شوق للآخرة .. فدعوني أذهب } أنا ماري شمل	الكاتب : د. نديم محمد عطا إلياس

توفيت عميدة المستشرقين الألمان البروفسورة " أنا ماري شمل " في٢٦ كانون الأول/ يناير ٢٠٠٣م عن عمر يناهز الثمانين عاماً ، مخلفة أكثر من مائة كتاب عن الإسلام وعقيدته وعبادته وحضارته وفرقه ، بالإضافة إلى مئات البحوث والمقالات والترجمات الأدبية المنقولة من العربية والفارسية والأردية والتركية وبقية اللغات الثمانية التي كانت تجيدها قراءة وكتابة وحواراً . وخلَّفت بعدها جحافل من المتخرجين على يدها من جامعة بون وأنقرة وهارفارد ونيويورك ولندن .

كانت أنا ماري شمل عملاقاً نابغة ، تعلمت العربية وهي شابة في الخامسة عشرة ، وحصلت على الدكتوراه الأولى في الثامنة عشرة وعلى البروفسورية في الرابعة والعشرين . وكانت أول امرأة تحوز على مقعد الدراسات الإسلامية في جامعة أنقره فكانت تقف أمام مئات الطلبة وهي أصغر منهم سناً . وكانت تتمتع بذاكرة خارقة لكل تصور .. تقف تحاضر ساعات في الأدب والتاريخ والفلسفة والعقيدة وهي مغمضة العينين ، وتستشهد بعشرات النصوص والأقوال ، معزية كل نص للكتاب الوارد فيه وتاريخ صدوره بل ورقم الصفحة الوارد فيها ، بالإضافة إلى ذكر التواريخ والأرقام والأسماء .. وهذا كله بأسلوب رصين جاهز للطباعة وكأنها تقرأه من كتاب بين يديها . وكانت تستمتع بمادة محاضرتها وهي مغمضة العينين فإذا انتهت من المحاضرة وجدت نفسها قد أدارت للمستمعين ظهرها دون أن تشعر هي ودون أن يجرؤ أحد على تنبيهها .

قضت أنا ماري شمل طيلة حياتها مع الإسلام .. بل للإسلام . لم يكن الإسلام والمسلمون مجرد مادة بحثها ودراستها فحسب ، ولم تكن علاقتها بالحضارة الإسلامية وشعوبها علاقة احترام وتقدير فحسب ، بل تغلغل حب الإسلام والمسلمين إلى كل ذرة في كيانها وصبغ أطوار حياتها وعلاقاتها ومواقفها ، مما جعل أعداءها - القلائل - " يتهمونها " بإخفاء إسلامها مريدين بذلك القدح في موضوعيتها وحيادها . ومما جعل محبيها من المسلمين - وكثير ما هم - يعتقدون موقنين بإسلامها . وكانت تجيب على السائلين عن إسلامها بقول جوته : « إذا كان الإسلام هو التسليم لله والإذعان لأمره .. فكلنا يحيا ويموت على الإسلام » . لم تبعث لي خطاباً قط إلا صدَّرته بخطها العربي الجميل بعبارة : (باسمه تعالى) ولم تنه خطاباً قط إلا بعبارة : (الفقيرة إلى رحمة ربها .. أنا ماري شمل) .

وكانت أنا ماري شمل وهي تلك القمة السامية متواضعة كل التواضع ، رقيقة كل الرقة ، دائمة الابتسامة ، مطأطئة الرأس دوماً . زرتها وهي في فراش مرضها قبل نصف عام مقدماً لها هدية باسم المجلس الأعلى للمسلمين في ألمانيا الذي كانت عضو الشرف فيه وعضواً في مجلس أمنائه .. قدمت لها تعليقة ذهبية من مكة المكرمة كتب في وسطها لفظ الجلالة بالأحجار الكريمة ، فأخذت تقبلها وتضعها على رأسها وجبينها وعينيها وصدرها وتقول : « كم كنت أتمنى مثل هذه الهدية .. ولكن لم يخطر في بالي قط أن يقدر اللّه لي مثلها من مكة المكرمة » وكلما انقطع حديثنا أخرجتها من محفظتها تقبلها وتتمسح بها .

وكانت وقد رقَّ عظمها وهزل جسمها لا تتوقف عن المحاضرة والإنتاج والعطاء . قالت لي في زيارتي تلك - ونحن مشفقين عليها من الشلل والكسور والآلام - (لقد أعددت كتابين أحدهما عن تأثير الحضارة الإسلامية في الشعوب الأفريقية والآخر عن الأدب السندي وهما جاهزان في رأسي ، لا يحتاجان إلا للكتابة) .

لم تفلح أنا ماري شمل إلى نقل ذلك الحب العميق للإسلام والمسلمين إلى كل طلبتها وتلامذتها ، ولم تسلم من هجمات المغرضين عند إبدائها التفهم لرفض المسلمين لتطاول سلمان رشدي على نبي الإسلام ﷺ . واتُهمت بتأييد الأصولية وقبول فتوى الخميني ، مما دعا الدار الإسلامية للإعلام إلى نشر كتاب (سيقهر الماء صُمَّ الحجر) [1] مدافعاً عنها ومؤيداً لها . ولكنها أفلحت في شق طريق جديد من الاحترام والتبجيل والحب للإسلام والمسلمين ، يسهل لمن بعدها من المستشرقين المحبين المنصفين السير فيه .

حصلت أنا ماري شمل على عشرات من أرفع الأوسمة من مختلف دول العالم الإسلامي والغربي ، وأعطيت جوائز لا عدَّ لها ولا حصر ، كان من أبرزها جائزة السلام في عام ١٩٩٥م ، وسُمي شارع رئيسي في إسلام أباد باسمها .

---

(١) صدر الكتاب بالألمانية تحت عنوان :

" Das Weiche Wasser wird besiegen dem harten Stein " .

وإن لم تنفذ وصيتها بدفنها في الباكستان ، فقد نفذت وصيتها بتلاوة الفاتحة في حفل تأبينها ، وقام بذلك صديقها المحب القديم الشيخ أحمد زكي يماني . وكان في وداعها الأخير بالإضافة إلى كبريات الشخصيات العلمية في ألمانيا وممثلي مدينة مثواها الأخير " بون " مئات من المسلمين والمسلمات من سائر الجنسيات الإسلامية والمدارس الفكرية والتوجهات السياسية وعدد من ممثلي السلك الدبلوماسي العربي والإسلامي . وبين عشرات الأكاليل من الزهور المقدمة من المستشار الألماني والوزراء والسفراء والمنظمات الإسلامية وقف تلقائياً عدد من المحبين المسلمين عند قبرها يتلون سورة " يس " في سكينة وهدوء وتواضع مثل تواضع تلك الفقيدة النادرة المثال .

ملاحظة :

(١) من كلماتها الأخيرة على فراش الموت : (Ich sehnte mich mein ganzes Leben - nach dem Jenseits .. Lasst mich doch gehen!)